شعر دعبل الخزاعي بين توهج العاطفة وعمق الانتماء

م.د. ستار عبد الله جاسم
كلية الآداب/ جامعة الكوفة

مقدمة:

يقف هذا البحث عند شاعر متميز من شعراء تراثنا الأدبي هو دعبل بن علي الخزاعي (١٤٨. ٢٤٦هـ)، وهو أحد الشعراء القلائل الذين رفضوا أن يكونوا أبواقا للسلطان أو سائرين في ركبه.

لقد اشتمل شعر دعبل الخزاعي على خصيصتين مهمتين، إحداهما سمة العاطفة المتوهجة التي يزخر بها شعره، والأخرى إن هذا الشعر ينطلق من عمقٍ في الانتماء، عبَّر عنه بكلِّ جُرأةٍ، ولم تؤثر فيه أساليب الترغيب أو الترهيب التي قد اتبعتها الخلافة العباسية .

يتألف البحث من ثلاثة مباحث، كان أولها يتطرق بنحو من الإيجاز لحياة الشاعر وأبرز محطات هذه الحياة، بما ينسجم وطبيعة موضوع البحث، أما المبحث الثاني فقد كان معنيا ببيان الاتجاه العاطفي الذي يتميَّزُ به الشاعر في مجمل أشعاره التي تصور مواقفه، فلم يتبع الأسلوب الحجاجي الكلامي، وإنما قاده طبعه وإحساسه إلى أن يوشح شعره بحرارة العاطفة، وجاء المبحث الثالث ليسلِّطَ الضوء على أبرز سمات عمق الانتماء لدى هذا الشاعر، الذي وظَّف شعره في سبيل الاعلاء والدفاع عن حقِّ أهل البيت (ع) ، مادحا راثيا، وبالمقابل كان سهما صائبا باتجاه أعدائهم عن طريق توظيفه غرض الهجاء، الذي أجاده متسلحا بشجاعة وبطولة عزَّ

نظيرها لدى غيره من شعراء عصره، حتى قال: ((لي خمسونَ سنة أحملُ خشبتي على كتفي أدورُ على من يصلبني عليها فما أجدُ من يفعلُ ذلك)).

المبحث الأول

حياة الشاعر وأبرز محطاتها:

يهدف هذا المبحث إلى التطرق لحياة الشاعر وعصره بما يلتقي وطبيعة الاتجاه العاطفي والانتماء العميق الذي يتصف به شعره، أي بما يسهم في الوصول إلى ما يفيد المبحثين الآخرين من هذه الدراسة.

إن الشاعر دعبل الخزاعي يعد من الشعراء الذين تختلف المصادر في ترجمات حياتهم، ويبدأ هذا الاختلاف في اسمه ونسبه وتفاصيل مهمة من حياته ولا ينتهي إذ يمتد إلى ان يشمل أسباب وفاته ولعل في الجانب السياسي أثراً في تلك الاختلافات الكبيرة.

وقد ذكر صاحب الاغاني بأنه ((دعبل بن علي بن رزين بن سليمان بن تميم بن نهشل بن خداش بن خالد....))[١]، وفي تاريخ بغداد هو ((دعبل بن علي بن رزين بن عثمان بن عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي الشاعر))[٢]، ولكن صاحب الاغاني نفسه يعود فيشكك في اسم دعبل الذي ساقه في كتابه إذ يروي ((عن محمد بن عمران الصيرفي قال: حدثني العنزي قال: حدثني محمد بن أيوب قال: دعبل اسمه محمد وكنيته أبو جعفر، ودعبل: لقبٌ لقّبَ به))[٣]. وقد جاء في لسان العرب أن دعبل أو الدعبل الناقة الشديدة[٤]. ويقف كارل بروكلمان عند مختلف الاراء فيوجزها قائلا: ((دعبل هو أبو جعفر الحسن وقيل عبد الرحمن وقيل محمد بن علي الخزاعي))[٥]. على أن هذا الشاعر لم يعرف إلا باسم دعبل أما الاسماء الاخرى التي تذكرها بعض المصادر فأمر لا يمكن الركون إلى وثاقته.

أما نسب الشاعر فإن بعض المصادر تزعم أن دعبلا إنما هو خزاعي بالولاء، وقد ذكر ذلك العسقلاني في لسان الميزان[٦]. وأيده في ذلك صاحب مقتبس الأثر[٧]. لكن هذه الاراء لا تصمد إزاء تأكيد أغلب المصادر المعتد بها على أن الشاعر خزاعي النسب والاصل ، ومنها الاغاني ، وتاريخ بغداد، وتاريخ بن عساكر[٨].

فضلا عن أن شعر الشاعر نفسه فيه ما يدل على صحة نسبة في خزاعة . ومن ذلك قصيدته التي يتعصب فيها لنسبه الخزاعي التي منها قوله[٩]:

أحببت قومي ولم أعدل بحبهم

قالوا تعصبتَ جهل قول ذي بهتَ

لهم لساني بتقريظي وممتدحي

نَعمْ، وَقَلْبي، وما تَحْويهِ مَقْدِرَتي

دَعنْي أَصِلْ رَحَمي إِنْ كَنْتَ قاطِعَها

لا بد للرحم الدُّنيا من الصلةِ

فاحْفَظْ عَشِيرَتَكَ الأدْنَينَ إِنَّ لَهمْ

حَقًّا يُفرِّقُ بَينَ الزَّوجِ وَالمَرَةِ

قومي بَنو (مذْحَجٍ) والأزْد إِخْوَتُهمْ

وآل (كندةَ) والأحياءُ من (علةِ)

وقبيلة الشاعر (خزاعة) من القبائل العربية العريقة والكبيرة ، يذكر القلقشندي أنهم سموا خزاعة لان بني مازن من الأزد وكانوا على ماء يقال له غسان، وأقبل بنو عمرو فانخزعوا عن قومهم فنزلوا مكة، وكانت لخزاعة ولاية البيت بعد جرهم[١٠]. ويروي ابن أبي الحديد أن خزاعة أصبحت ملء الأرض من مصر إلى الشام إلى العراق إلى خراسان إلى غيرها، اما ولاء هذه القبيلة للامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) فإن ابن أبي الحديد يذكر قول معاوية بن أبي سفيان في ذلك إذ يقول هذا الأخير : خزاعة بلغوا من الولاء لعلي بن أبي طالب حدا لو أمكن لنسانهم محاربتنا لحاربتنا[١١].

وشب دعبل وترعرع على حب الادب والاختلاف إلى مجالس الكوفة المعروفة الحافلة بالافكار السياسية والحزبية والمنازعات والمخاصمات ، وتعد الكوفة يومئذ مرجع الشيعة ومستقر العلماء في الحديث والفقه واللغة ومركز الدعاة إلى الثورة، وفي الكوفة أيضا كانت قد اضطرمت الدعوة لآل البيت (عليهم السلام) فانقلبت لصالح العباسيين بعد ذلك ، لذلك شعر الذين ارادوها لآل البيت بصدمة عنيفة[١٢].

في هذا الوسط الزاخر بالاحداث والتيارات العاصفة ، وبين هذه القبيلة الكبيرة نشا دعبل الشاعر.

ثم غادر دعبل الخزاعي الكوفة واستوطن بغداد ، ويعود السبب في ذلك إلى بيته ذي الشهرة الكبيرة[١٣].

لا تعجبي يا سلمُ من رجلٍ

ضَحِكَ المشيبُ برأسهِ فبكى

هذا البيت الشعري سمعه الرشيد من المغنين فطرب له وسأل عن قائله فقيل دعبل بن علي وهو غلام من خزاعة ، فأمر بإحضار عشرة آلاف درهم وخلعة من ثياب ومركب ودفع ذلك إلى خادم من خاصته ، وقال: اذهب إلى خزاعة فأسأل عن دعبل بن علي واعطه هذا ، وقل له ليحضر إن شاء ، وإن لم يجب ذلك فدعه، فلما دخل عليه وسلم امره بالجلوس واستنشده الشعر فانشده فاستحسنه وأمره بملازمته[١٤].

وقد كان لدعبل في بغداد مكانة سامية عندما استوطنها وبها تعرف على كبار الوزراء والقراد والامراء والقضاة وشارك في مجالسهم واطلع اطلاعا حقيقيا على بيئة الخلافة آنذاك.

ومن الجدير ذكره أن اختفاء دعبل وتشرده لم يقع بعد مغادرته الكوفة كما زعمت بعض المصادر[١٥] ، وانما كانت كثرة اختفاء الشاعر واسفاره قد جاءت بعد مطاردته من قبل السلطات السياسية العباسية التي ظلت تطادره وتبالغ في مطاردته[١٦].

أما وفاة دعبل فهذا الامر لا يسلم من اختلاف الاراء سواء في سنة الوفاة ام في سببها، وقد زعم أن وفاته سنة ٢٤٢ هـ ولكن الرأي الذي يمكن الاطمئنان إليه إنه توفي في سنة ٢٤٦هـ، وفي سبب وفاته هناك من يرى إنه انما قتل بسبب هجائه المعتصم، وقيل إنه عندما هجا مالك بن الطوق التغلبي ارسل إليه من سمه[١٧].

ومما يذكر لدعبل الخزاعي أيضا انه لم يكن شاعرا فحسب وانما كان ناقدا أيضا اذ تشير الفهارس القديمة وكثير من المصادر الادبية إلى ان هناك كتابا نقديا له اسمه (طبقات الشعراء) وهذا الكتاب يدل عنوانه وبعض ما تذكره المصادر عنه أنه كتاب يشتمل على كثير من الاهمية في ميدان الادب والنقد والحق انه يجب

ان ينال ما يستأهل من بذل الجهد في سبيل جمع مادته ونصوصه وكل ما يتعلق به من معلومات.

المبحث الثاني : الاتجاه العاطفي

على الرغم من تباين آراء الباحثين في شأن البواعث والدوافع التي تحمل الفنان على ابداع عمله الفني وابرازه إلى الحياة لكن ما يكاد يحظى بشبه اجماع منها هو أن الفن في أساسه انفعال يحمل صاحبه على التعبير عنه[١٨]، وهذا الامر يزداد أهمية في فن الشعر كونه الاقرب إلى الطبيعة الشعورية والاحاسيس الوجدانية ، فالشعر في أبسط تعريفاته هو آت من الشعور.

ويعد الشاعر دعبل الخزاعي من الشعراء الذي طفحت على أدائهم الشعري عاطفة متوهجة ، وما يميز هذا العاطفة أيضا انها جاءت في نسيج شعري كان الشاعر يعبر به عن آراء وافكار تجسد انتماءه ووجهات نظره في الدين والسياسية والخلافة... وما إلى ذلك . وهذا الامر يختلف فيه دعبل الخزاعي عن شاعر متقدم من شعراء الشيعة هو الكميت بن زيد الأسدي (٦٠. ١٢٦هـ) الذي تزعم باب الاحتجاج[١٩]. فإذا كان الكميت حين سلك مسلك الاحتجاج قد أثرى مضمون التشيع فكرا وعقلا فقد ((أثرت مضامين التشيع عند دعبل الادب عاطفة وروحا. فخرجت صورة ناطقة بما يجول في نفسه وفي عاطفته وسجلا خالدا لحياته وعقيدته وصورة رائعة لما حل بآل البيت من محن وما نزل بساحتهم من نكبات، في رصانة عبارة ، وجزالة لفظ، واحكام نسج وصدق أداء))[٢٠]، وهذا التدفق في الاحساس جعل رثائياته في أهل البيت بمثابة أنغام حزينة تثير العاطفة وتسكب الدموع

لقد كان شعر دعبل الخزاعي ((مرآة أمينة لنفسه في رضاه وسخطه وخوفه وأمنه، وإن ذلك ليُفسر على الصفة الاصلية العامة وهي غلبة الانفعال العميق))[٢١]، لذا جاء هذا الشعر صورة حية عما يحسه الشاعر من الالام والنكبات ولا بدع إذا ما عد في طليعة شعراء الشيعة في نهوضه بالجانب العاطفي الوجداني في حين كان ((الشعر الشيعي في العهود البعيدة يعنى كثيرا بناحيتي الاحتجام والدفاع))[٢٢].

والأمثلة الشعرية التي تعج بالعاطفة والوجدان في شعر دعبل الخزاعي كثيرة ومنها على سبيل

المثال لا الحصر هذه الأبيات في سيد الشهداء الحسين (عليه السلام)[٢٣]:

يا واقفاً يبكي الطلول ويُنشدُ

إن كنتَ محزونا فما لكَ ترقدُ؟

هلا بكيت عن الحسين وأهله

لتضعضع الاسلام يوم مُصابه

فلقد بكته في السماء ملائكٌ

بالله تهتَ وغابَ عنك المرشدُ

هلا بكيت لمن بكاه محمدُ؟

إن البكاء لمثلهم قد يُحمدُ

فالجود يبكي فقده والسؤددُ

زهرٌ كرامٌ راكعون وسجّدُ

يإن هذه الأبيات تتخذ من عاطفة البكاء مرتكزا رئيسا لها بدءا من مطلعها الذي يعنف فيه الشاعر شخصا واقفا يبكي الطلل ويطالبه أن يدع الطلل ويأتي إلى من يستأهل الحزن والبكاء، كيف لا وقد بكاه من قبل سيد الكائنات الرسول الاكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بل بكته ملائكة السماء ويؤكد الشاعر أن القيم كلها قد بكت الحسين (عليه السلام) فالجود يبكي والسؤدد يبكي وهنا نلحظ العاطفة قد تواشجت بتقنية مهمة من تقنيات الاسلوب الاستعاري ألا وهي تقنية التشخيص ما اسهم في إثراء الاتجاه العاطفي في القصيدة.

ثم يذكر الرزية التي ارتكبها قتلة الامام الحسين (عليه السلام) وكيف كانت حال العقيلة زينب (عليها السلام) قائلا[٢٤]:

لم يحفظوا حقّ النبي محمدٍ

إذ جرّعوه حرارةً ما تبردُ

قتلوا الحسين فاثكلوه بسبطه

فالثكلُ من بعد الحسين مبّردُ

كيف القرار وفي السَّبايا زينبُ

تدعو بفرط حرارةٍ: يا أحمدُ

.....

يا جدُّ قد مُنعوا الفرات وقُتّلوا

عطشا فليس لهم هنالك موردُ

يا جدُّ من ثُكلي وطول مصيبتي

ولما أعانيه أقومُ وأقعدُ

يا جدُّ ذا نحر الحسين مضرّجٌ

والخدُّ منِّي بالدماء مخدّدُ

يا جدُّ ذا نحر الحسين مضرّجٌ

بالدم والجسم الشريف مجرّدُ

يا جدُّ ذا صدر الحسين مرضضُ

والخيل تُنزل من عليه وتصعدُ

يا جدُّ ذا نجل الحسين معلّلُ

ومُغلّل في قيده ومُصفّد

لا شك في أن الذي يقرأ هذه الأبيات لا يمكن أن يمسك نفسه من البكاء لحرارة العاطفة التي تطفح عليها، فالشاعر في بدء الأبيات يشير إلى قول الرسول الاكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ((إن لقتل ولدي الحسين حرارة في القلوب لن تبرد أبدا))[٢٥]، فضلا عن أن هذه الحرارة وهذه الرزية قد ألقت بظلالها على كل الحوادث اللاحقة ، فكل حادثة إذا ما قورنت بحادثة الطف فإنها سوف تهون، ثم يؤكد الشاعر عظم الفاجعة التي كانت العقيلة الحوراء زينب (عليها السلام) إزاءها، ما جعلها تتجه إلى نداء جدها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) باثّة إليه آلامها ولواعجها وثكلها مما مر عليها في ذلك اليوم الجلل من قتل الحسين (عليه السلام) واخوته وأهله من بني هاشم واصحابه وهم عطاشى ثم تروي لجدها ما حلَّ بالاجساد الطاهرة ولا سيما صدر السبط الشهيد من الرضّ بسنابك الخيل ومن شتى ألوان الظلم والتنكيل التي تدل على الحقد الدفين عند بني أمية على العترة الطاهرة ، ولا يفوت الشاعر دعبل الخزاعي من الاشارة إلى ما كان عليه الامام زين العابدين (عليه السلام) من مرض لم يستطع بسببه القتال لكنه على الرغم من ذلك لم يسلم من بطش الجيش الاموي فقد قيد وعذب وعقيلة بني طالب قد عاشت تلك المحنة بكل تفاصيلها الاليمة . وهنا نلحظ أن

أسلوب النداء الذي تكرر في ستة أبيات متتالية قد أسهم في إثراء الزخم العاطفي الذي كان الشاعر بصدد الاعراب عنه؛ لأن النداء من الاساليب التي تسهم في الافضاء عن الوجدان.

أما تائية دعبل في أهل البيت (عليهم السلام) فقد قيل فيها الكثير ولكننا نقف على أمر لافت للنظر هو من آثار هذه القصيدة ، ومن تأثيرات المضمون العاطفي الذي يزخر به شعر دعبل ، فقد روي أن المأمون العباسي[٢٦] قد تناهى إليه كثير من أبيات القصيدة التائية فدهش وتأثر بها وأحب أن يسمعها من الشاعر نفسه، وما زالت تردد في صدره حتى قدم عليه دعبل، فقال له ، أنشدني قصيدتك التائية ، فإني أعرفها وقد رويتها، إلا أني احب أن اسمعها من فيك ، ولا بأس عليك ولك الأمان من كل شيء فيها، فأنشدها حتى إذا صار إلى هذا الموضع[٢٧]:

ألمْ ترَ أني منْ ثلاثينَ حجةً

أرى فيئهمْ في غيرهمْ متقسماً

فآلُ رسول الله نُحْفٌ جسومهم

بناتُ زيادٍ في القصورِ مَصْونَةٌ

إذا وُتروا مدّوا إلى أهل وِتْرهم

فلولا الذي أرجوه في اليومِ أو غدٍ

أروحُ وأغدو دائمَ الحسراتِ

وأيديهم من فيئهم صفراتِ

وآل زياد غلَظُ القَصَراتِ

وبنت رسول اللّه في الفَلَواتِ

أكُفًّا عن الأوتار مُنْقَبضاتِ

تقطّعُ قلبي إثرهُمْ حسراتِ

فبكى المأمون حتى اخضلت لحيته بدمعه، وجدد له الأمان ، وكان دعبل أول داخل عليه وآخر خارج من عنده[٢٨]، وهذه الحادثة تحمل دلالات مهمة وعميقة لعل في مقدمتها أن المأمون العباسي على الرغم من جحوده لحقوق أهل البيت (عليهم السلام) وانه مهما تظاهر بالتقرب اليهم باقٍ علي ما عليه الخلفاء العباسيون من انحراف عن جادة الصواب والحق، على الرغم من ذلك

كله لم يتمكن المأمون أن يمنع دموعه من الانهمار ولعل في الاتجاه العاطفي الوجداني الذي ابدع به الشاعر اثراً في ذلك. فضلا عن أن النفس الانسانية مهما بلغت من الجحود والغلظة لابد من أن تأتي عليها لحظات تذعن فيها لصوت الضمير ولا شك في أن للأدب شكلا ومضمونا بالغ الأثر في ايقاظ بعض الضمائر في بعض الأحيان.

المبحث الثالث : عمق الانتماء

إذا كان شعر دعبل قد انماز بتوهج العاطفة فهذا لا يعني أن بروز العاطفة الحارة كان على حساب عمق المضمون وقوة الانتماء وإنما كانت عقيدة الشاعر حاضرة شاخصة في شعره الذي كان صورة لحياته التي كان فيها شجاعا جريئا ولقد اعتد بشجاعته واقدامه وتحديه للسلطة ومن سار في ركبها قائلا: ((لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك))[٢٩].

إن ذلك يعني أن الشاعر كان بمثابة صوت المعارضة ولسانها الصادح الحر الذي ينشد الاصلاح والمطالبة بحقوق أهل البيت (عليهم السلام) فيندد بالظالمين يأبى الجاه ويناصر المظلومين، ((وهل هناك زهد أبلغ من عزوف الشاعر عن لذات الحياة ومغرياتها في قصور الخلفاء العامرة بالترف ليعرض حياته للخطر والمخاطر ويهيم على وجهه في أنحاء البلاد ، فليس غريبا عليه هجاء القادة والوزارء والكتاب فما هم إلا ممثلون لرغبات حكامهم))[٣٠]، فضلا عن هجائه للخلفاء أنفسهم ولم يكن ذلك ادعاءً منه بهدف لفت الانظار وانما كان الشاعر فيه يستجيب استجابة حقيقية تلقائية حية للصوت الصارخ في أعماقه فتتدفق مشاعر المرارة والغضب وبدا شعره ينفث بزفرات تضيق بها الضلوع ، ينم عن غضب أصيل وتمثل صادق لمجريات حياته اذ ((كانت حياته طلقة لا تخضع يعتد ولا تغريه العطايا كما لم تغره الولاية))[٣١] فهو شاعر عبّر عما أراده هو كما لا يُراد منه.

لقد كان دعبل الخزاعي شاعرا ملتزما، وكان شعره يدل على أنه صاحب قضية يضحي في سبيلها بالنفس والنفيس ولا يخشى سلطانا أو أميرا أو من له نفوذ، لذا جاءت عقيدة التشيع لديه متسمة بالصدق والاخلاص والبعد عن التكلف والاصطناع ؛ لأن الشاعر لم يكن متكسبا فيها أو

لديه مطمع من أئمة أهل البيت (عليهم السلام) حتى أصبح ((في كفاحه وبلائه . في ميدان الشعر وغيره . من أبرز ما عرفته الدولة العباسية في الدفاع عن الائمة من آل علي والاحتجاج لهم والمطالبة بحقهم المقدس، هذا الحق الذي تألبت على اغتصابه واهضامه وتنكرت له ثلة من الخونة والحاقدين والطامعين))[٣٢]. إن هذا الالتزام في الشعر الذي يتبنى قضية فينبري للدفاع عنها بكل ما أوتي من شجاعة قد مثل صورة ناطقة واتجاها فريدا يعد دعبل الخزاعي رائدا من رواد هذا الاتجاه. وقد ((خفي على جمهور من المؤرخين شأن دعبل كشاعر يحاول جاهدا تحقيق آماله ، ولا يريد أن يفرط فيها كما فاتهم أن جوانب مهمة من شعره مليئة بالاشارات والحوادث التاريخية مما لم يألفه أو يعرفه الشعراء من معاصريه ، الشعراء الذين برعوا في أساليب الرياء والملق وصياغة الكذب والتضليل والصناعة الشعرية المقيتة على عادة الناس في تقبل مثل هذه الالوان ولانخداع بالظاهر الفارغة ، والنفور من مواجهة الحقائق))[٣٣].

وقد حاول دعبل أن يوظف أغراض الشعر العربي الموروثة من أجل التعبير عن قضيته التي ملأت عليه كيانه ألا وهي الدفاع عن أهل بيت النبوة (عليهم السلام)؛ لذلك جاء أغلب مديحه ورثائه مختصا بهم.

ومن تلك المدائح قصيدته في مديح أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) يذكر فيها تصدق الامام بخاتمه للسائل في الصلاة ونزول قول الله تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ }[٣٤]، يقول فيها[٣٥]:

نَطَقَ الْقُرانُ بِفَضْلِ أَلِ مُحَمَّدٍ

بولاية ِ المختارِ مَن خَيْرُ الْوَرَى

إذ جاءهُ المسكينُ حال صلاتهِ

فتناولَ المسكينُ منهُ خاتماً

فاختصهُ الرَّحمنُ في تنزيلهِ

إن الإله وليكم ورسوله

يكن الإله خصيمه فيها غدا

وولاية ٍ (لعَلِيِّهِمْ) لم تُجحَدِ

بَعدَ النَّبيِّ الصَّادِقِ المُتَوَدَّدِ

فامتدَّ طَوْعاً بالذِّراعِ وباليدِ

هِبة َ الكريمِ الأجودِ بنِ الأجود

مَنْ حَاز مِثْلَ فخارِهِ فلْيَعدُدِ

والمؤمنين فمن يشأ فليجحدِ

واللهُ ليس بمُخلفٍ في الموعدِ

فالشاعر هنا أراد أن يوثق سبب نزول النص القرآني الكريم شعريا وهذه حادثة لا تحتمل الجدل أو الرد وما يحسب للشاعر هنا أنه وظف الفن الشعري من أجل التعبير عن محور مهم من عقيدته ألا وهو ضرورة أن يوالي المسلم الامام عليا (عليه السلام) ، وما يلفت النظر هنا أيضا إشارة الشاعر إلى والد الامام ابي طالب (رضوان الله تعالى عليه) في قوله (الأجود ابن الاجود) ، ثم يختم الشاعر أبياته بأن من يجحد ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) يكن الله عز وجل خصمه يوم لا ظل إلا ظله ، والله سبحانه لا يخلف الميعاد.

أما كثرة أشعار دعبل في غرض الهجاء فليس مسوغ ذلك ما ذهب إليه الاصفهاني في أغانيه اذ قال عن دعبل بأنه ((شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم عليه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم))[٣٦].

وليس مسوغ ذلك أيضا ما ذهب إليه الدكتور الشكعة إذ قال:((لقد كان دعبل يعيش الهجاء كما يعيش المرء حياته وأن دعبلا هجَّاء محترف يقول الهجاء هواية ويصنعه احترافا))[٣٧].

فالامر . كما يرى البحث . يكمن في مسوغين رئيسين أحدهما شجاعة الشاعر . دعبل . وجرأته وثباته على المبدأ الذي يؤمن به فلا يحيد ولا يذعن ولا يجاري ولا يداهن وإنما يطلق للسانه ولصوته الشعري العنان مهما كان ثمن ذلك . وهذه السمة ينبغي أن يتحلى بها كل شاعر يريد أن ينتمي إلى صوت ضميره وكيانه الداخلي فلا يتخلى عن قناعاته الذاتية والشخصية لضغوط أو مغريات ، أما المسوغ الرئيس الآخر الذي أدى إلى كثرة الهجاء في شعر دعبل وشدته فإنما يعود إلى طبيعة البيئة التي عاصرها الشاعر وعاشها بشتى تفاصيلها ودقائقها اذ كانت هذه البيئة ملأى بالظلم والظالمين والنفاق والمنافقين وبشتى ألوان

الفساد في مختلف طبقات الدولة من خلفاء ووزراء وأمراء وأصحاب النفوذ ، وهذا ما يستوجب الوقوف بوجهه والكشف عنه والأديب ولا سيما الشاعر يجب أن يكون أمينا في تصويره لواقعه المعيش ، مشخصا مواطن الخلل بإخلاص وجرأة وهذا ما يجب أن يتحلى به كل فنان يحترم فنه، وهنا يجدر بنا القول : إن الفنان الحقيقي . ولا سيما الشاعر. لا يمكن أن يقدر المحيط الذي يعيش فيه ويحترمه بمجرد امتداح أحواله والرضا عن نظمه وأفراده ، وإنما قد تكون أعظم خدمة يسديها الفنان لمجتمعه بأن يتخذ منه موقف النقد والمعارضة[٣٨]، وهذا ما كان عليه شاعرنا دعبل الخزاعي عبر كثرة غرض الهجاء في شعره.

والشاعر دعبل الخزاعي عندما يهجو لم تكن له دوافع شخصية لأنه في حال مدحه مَنْ هجاهم فسوف ينال مغريات مادية كثيرة لكنه ليس ممن يطلب الترف والدعة على حساب المبدأ والعقيدة، ومن أبرز اشعاره في الهجاء ما قاله في هجاء بني أمية وبني العباس قائلا[٣٩]:

أرى (أميةَ) معذورينَ إنْ قتلوا

ولا أرى لبني العباس منْ عذرِ

أرى (أميةَ) معذورينَ إنْ قتلوا

بنو (معيطٍ) ولاة ُ الحقدِ والوغرِ

قومٌ قتلتمْ على الاسلامِ أولهمْ

حتى إذا اسْتَمْكَنوا جَازَوا عَلَى الكُفر

أرْبِعْ بطُوسٍ عَلَى قَبرِ الزكيِّ بِها

إنْ كنتَ تربعُ منْ دينٍ على وطرِ

قُبرانِ في طُوسَ: خيرُ الناسِ كلّهُم

وقَبْرُ شرِّهُمُ هذا مِن الْعِبَرِ

ما ينفعُ الرجسَ منْ قربِ الزكيَّ وما

على الزكيَّ بقربِ الرجسِ منْ ضررِ

هيهاتَ كلُّ امرىءٍ رهنٌ بما كسبتْ

له يَدَاهُ، فَخُذْ مَا شِئْتَ أَو فَذَرِ

إن الهجاء في هذه الأبيات انما هو موجه إلى فئة لم تنصف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

في أهل بيته (عليهم السلام) وقد أشار الشاعر إلى ذلك عندما مهد لهذه الأبيات بقوله[٤٠]:

يا أُمة َ السُّوءِ ما جازَيتِ أَحمدَ عن
حسنِ البلاءِ على التنزيل والسُّورِ
خلفتموهُ على الأبناءِ حين مضى
خلافة َ الذئب في أبقار ذي بَقَرِ

فالشاعر يهجو بني أمية وبني العباس واصفا هارون العبَّاسي بأنه شر الخلق؛ بل هو الرجس. ولا يفوته أن يذكر ألقاب الخلفاء العباسيين متهكما ساخرا كاشفا عن انحرافهم من كل الدلالات والمعاني التي تحملها تلك الالقاب فلا رشد هناك ولا أمانة ولا دين، يقول[٤١]:

وعاثتْ بنو العباس في الدينِ عيثة
تحكّمَ فيها ظالمٌ وظنينُ
وسموا رشيداً ليسَ فيهمْ لرشدهِ
وها ذاكَ مَأْمُونٌ وذاكَ أَمينُ

فما قبلت ْبالرشدِ منهمْ رعاية
وَلا لِوليٍّ بالأَمانَة ِ دِينُ
رَشيدُهم غاوٍ وطِفلاهُ بَعْدَهُ
لهذا رزايا ، دونَ ذاكَ مجونُ

ثم يشير الشاعر إلى استشهاد الامام الرضا (عليه السلام) معرضا فيها بالمأمون ويبدو أن الشاعر على يقين بأن قتل الامام الرضا (عليه السلام) انما كان بتدبير من المأمون، فيخاطب الشاعر قبر الامام قائلا:

أَلا أَيُّها القَبرُ الْغَرِيبُ مَحَلُّهُ
بطوسٍ عليكَ السّارياتُ هتونُ
شككتُ فما أدري أمسقي شربة ٍ
فأبكيك أم ريب الردى فيهونُ
وأَيُّهما ما قُلْتَ: إِنْ قُلْتَ شَرْبة
وإِنْ قلتُ موتٌ إنهُ لقمينُ
أيا عجباً منهمْ يسمونكَ الرضا
وتَلْقاكَ مِنهمْ كَلْحَة ٌ وغُضُونُ

والبيت الأخير واضح الدلالة في أن المأمون وجماعته كانوا في حال من البغض والحقد الدفين والعداء المستحكم من الامام (عليه السلام) وقد رصد الشاعر ذلك ؛ لأنه كان من المقربين من الامام ومن ذوي الاطلاع والخبرة في تلك الأوساط.

ومما يجدر ذكره أن مواقف دعبل الخزاعي الشجاعة وأشعاره التي عبرت عن تلك المواقف لم ترق لبعض النقاد والمؤرخين والباحثين، فلم

ينصفوه ووصفوه بصفات أو اطلقوا عليه احكاما أو روجوا عنه أخبارا أقل ما يقال عنها بأن فيها قدراً كبيراً من التحامل والاجحاف بحق دعبل الخزاعي، ومن أوائل هؤلاء أبو الفرج الاصفهاني (ت: ٣٥٦هـ)، إذ يتهمه بإحدى حوادث القتل في الكوفة[٤٢]. ويصفه بالانحراف[٤٣]، فضلا عن أن الأصفهاني دائما ما يروي الاخبار في حق دعبل عمن يحمل حقدا عليه وبغضا له مثل أبي خالد الخزاعي[٤٤]. وإذا كان الأصفهاني لم يعاصر الشاعر فقد ولد في سنة (٢٨٤هـ) في حين توفي دعبل في سنة (٢٤٦هـ) فكان الاجدر بالاصفهاني ألا يروي عمن يناصب الشاعر العداوة والبغضاء.

وإننا لنعجب من مؤرخ آخر هو ابن خلكان (٦٨١هـ) في وفياته إذ يقول عن دعبل ((كان شاعرا مجيدا إلا إنه كان مولعا بالهجو ، هجا الخلفاء فمن دونهم))[٤٥]، وكأن معايير الاجادة لا تلتقي وهجاء الخلفاء والقادة.

أما النقاد المحدثون فإن كثيرا منهم قد سار في ركب التحامل والإساءة إلى الشاعر، ولعل أبرزهم شوقي ضيف إذ يقول في دعبل: ((كان فيه نزعة متأصلة إلى الشر وارتكاب الجنايات، وقد دفعته إلى أن يصبح أكبر هجاء في عصره وأن يعم بهجائه الخلفاء))[٤٦].

وهنا يجب أن نقف وقفة متأنية فاحصة لمفردات هذا الحكم النقدي الذي اطلقه هذا الناقد في حق شاعر ينتمي إلى مجال الادب وليس إلى مجال يتعلق بالقانون ومكافحة الاجرام وما شابه ذلك ولاسيما في عبارات مثل: (النزعة المتأصلة إلى الشر، ارتكاب الجنايات) والغريب أن هذا الناقد يرى أن دليله الاوحد على حكمه انما هو هجاء الشاعر للخلفاء. ويشارك مصطفى الشكعة شوقي ضيف في وصف شخصية دعبل بالشخصية الشريرة[٤٧]. ولعل ذلك مرتبط بكثرة هجائه.

ومما يثير الدهشة والغرابة حكم الدكتور يونس السامرائي على نفسية دعبل الخزاعي إذ يقول السامرائي: ((ولعل قول دعبل الآتي ونظرته المتشائمة إلى الناس يستقطب ما انطوت عليه نفسيته من كره وبغض وانحراف طبع حياته كلها))[٤٨].

ويروي البيتين[٤٩]:

ما أكثر الناسَ لا بَلْ ما أَقلَّهم

الله يَعْلم أَنِّي لم أَقُلْ فَنَدَا

إنِّي لأفْتح عَيْني حِينَ أَفْتَحَها

على كَثيرٍ ولكنْ لا أرَى أحدا

والحق أن هذين البيتين انما هما يصوران حال الاغتراب التي يحسها الشاعر فليس هناك من يؤنسه أو يشاركه همومه وآلامه وآماله فكأنه يشعر بغربة الذات عن محيطها وهذه تجليات ذاتية تعرض للشعراء الذين يعيشون هما ذاتيا نفسيا خاصا. وهذه الاحساسات أمر طبيعي عند الشعراء الوجدانيين.

وإننا إذا استطعنا ان نتفهم رأي الدكتور السامرائي بأن ثمة تشاؤما يتضمنه البيتان فلا يمكننا أن نتفهم ما وصفه بانطواء نفس الشاعر على الكره والبغض والانحراف بسبب هذا الشعر لأن هذا الحكم فيه ابتعاد عن موضوعية التحليل النقدي ، فضلا عن أن الشاعر له من المسوغات سواء الخارجية التي تتصل بمحيطه أم الداخلية التي تتعلق بنفسيته . ما يكفي للتصريح بخيبة أمله بالمجتمع الذي يعيش فيه.

ولا شك في أن فقدان ديوان دعبل الخزاعي له علاقة بما تعرض له الشاعر من مطاردة وتشريد من السلطات التي عاصرها من جحود وتحامل ممن يسير في ركب السلطة فما تعرض له الشاعر تعرض له ديوانه أيضا وقد حدثنا التاريخ بأن هناك ديوانا شعريا لدعبل يقترب من ثلاثمائة ورقة ذكره ابن النديم في الفهرست[٥٠]. ولكن لم يبق ذلك الديوان ، وفقد بفعل فاعل إذ ((في أدوار التاريخ أدوات وآلات تسخرها السلطات لتقف مطواعة لما تؤمر به ، ويطلب تنفيذه منها، في طمس الفضيلة ، وقتل الوعي ، وإماتة الشعور الحي ، والافتراء على التاريخ، وإساءة الافكار والمشاعر والاعتداء على الحريات والكرامات))[٥١]؛ لأن سلطات الطغاة تخشى الأدب الهادف لأنه سلاح أمضى من سلاح الحرب الاعتيادي إذ يزلزل أركانها ويستنهض الهمم والعزائم لدى الشعوب.

الهوامش:

(١) الاغاني:١٢٢/٢٠.
(٢) تاريخ بغداد: ٣٨٢/٨.
(٣) الاغاني: ١٢٣/٢٠.
(٤) ظ: لسان العرب: مادة دعبل.
(٥) تاريخ الادب العربي: ٣٥١/٢.
(٦) ظ: لسان الميزان :٤٣٠.
(٧) ظ: مقتبس الأثر: ١٨.
(٨) ظ: تاريخ دمشق: ٣٢٧.
(٩) شعر دعبل بن علي الخزاعي ، صنعة عبد الكريم الاشتر: ٧٨. ٧٩.
(١٠) ظ: نهاية الارب في معرفة أنساب العرب: ٤٥.
(١١) ظ: شرح ابن أبي الحديد: ٤٨٦/١.
(١٢) ظ: ديوان دعبل بن علي الخزاعي، تح : عبد الصاحب الدجيلي: ٤٠.
(١٣)شعر دعبل بن علي الخزاعي ، صنعة عبد الكريم الاشتر:١٦٠
(١٤) ظ: الاغاني: ١٩٣/٢٠.
(١٥) ظ: م.ن: ١٢٤/٢٠.
(١٦)ظ: ديوان دعبل بن علي الخزاعي، صنعة عبد الصاحب الدجيلي: ٤٢.
(١٧) ظ: مشاهر شعراء الشيعة: ١٣٢.
(١٨) ظ: العاطفة والإبداع الشعري: ٦٧.
(١٩) ظ: البيان والتبيين: ١/ ٤٥.
(٢٠) دعبل بن علي الخزاعي الصورة الفنية في شعره: ١٣٥.
(٢١) م.ن: ٢٨.
(٢٢)ظ: ديوان دعبل بن علي الخزاعي، صنعة عبد الصاحب الدجيلي: ٥٢.
(٢٣)شعر دعبل بن علي الخزاعي ، صنعة عبد الكريم الاشتر: ٢٤٥. ٢٤٦.
(٢٤) م.ن: ٢٤٨. ٢٤٩.
(٢٥) فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ٢/ ١٤٢.

(٢٦) ظ: تاريخ دمشق: ٥/٢٣٤.

(٢٧)شعر دعبل بن علي الخزاعي ، صنعة عبد الكريم الاشتر: ٢٣٥

(٢٨) ظ: اتجهات الشعر في القرن الثاني الهجري: ١٠٩.

(٢٩) وفيات الاعيان : ٢/٢٦٦

(٣٠)دعبل بن علي الخزاعي الصورة الفنية في شعره:٥٤.

(٣١) م.ن: ٥٨.

(٣٢)ظ: ديوان دعبل بن علي الخزاعي، صنعة عبد الصاحب الدجيلي: ٥٢.

(٣٣) م.ن: ٥٣.

(٣٤) المائدة : ٥٥.

(٣٥) شعر دعبل بن علي الخزاعي ، صنعة عبد الكريم الاشتر:٢٥٦.

(٣٦) الأغاني: ٢/١٢٠.

(٣٧) الشعر والشعراء في العصر العباسي: ٣٢٩.

(٣٨) محاضرات في طبيعة الفن ومسؤولية الفنان: ٨٦.

(٣٩) شعر دعبل بن علي الخزاعي ، صنعة عبد الكريم الاشتر: ١١٢. ١١٣.

(٤٠) م.ن: ١١١.

(٤١)م.ن: ١٩١ـ ١٩٢.

(٤٢) ظ: الاغاني: ٢٠/٧٤.

(٤٣) ظ: م.ن/ ٢٠/٨٣.

(٤٤) ظ: م.ن: ٢٠/ ١٢٥.

(٤٥) وفيات الاعيان / ٢/٢٦٦

(٤٦) العصر العباسي: ٣١٨.

(٤٧) ظ: الشعر والشعراء في العصر العباسي: ٣٢١.

(٤٨) دراسات أدبية: ٢٠٩.

(٤٩) شعر دعبل بن علي الخزاعي ، صنعة عبد الكريم الاشتر: ٩٧.

(٥٠) ظ: الفهرست :٢٢٩.

(٥١) ظ: ديوان دعبل بن علي الخزاعي، صنعة عبد الصاحب الدجيلي: ٣٤.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١. اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، د. مصطفى هدراة ، دار المعارف . مصر، ظ٢، ١٩٧٠م.

٢. أعيان الشيعة ، محسن الامين، دار التعارف، بيروت ، ط٥، ١٤١٨هـ . ١٩٩٨م.

٣. الأغاني، أبو الفرج الاصفهاني (ت: ٣٥٦هـ) تحـ : عبد الله العلايلي وآخرين ، دار الثقافية ، بيروت ، ط٤، (د.ت).

٤. تاريخ الادب العربي ، بروكلمان، ط٥، دار المعارف ، د.ت.

٥. تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي(٤٦٣هـ) تحـ: محمد أمين الخانجي، مكتبة الخانجي ، القاهرة، مصر، ١٩٣٠م.

٦. تاريخ دمشق ، ابن عساكر، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ٢٠٠١م.

٧. دراسات أدبية ، د. يونس أحمد السامرائي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد ، ٢٠٠٠م.

٨. دعبل بن علي الخزاعي بين الفكر الرسالي والفن الأدبي ، د. عبد الرسول الغفاري ، مكتبة الامام الحسين التخصصية ، ط١، ١٤٣٣. ٢٠١٢م.

٩. دعبل بن علي الخزاعي الصورة الأدبية في شعره، كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان ، ط١، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

١٠. ديوان دعبل بن علي الخزاعي، تحـ : عبد الصاحب الدجيلي، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط٣، ١٩٨٩م.

١١.شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، دار إحياء التراث العربي ، دمشق.

١٢. شعر دعبل بن علي الخزاعي ، صنعة عبد الكريم الاشتر، مكتبة الحيدرية ، ط١، ١٤٢٧هـ.

١٣. الشعر والشعراء في العصر العباسي، د.مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٣.

١٤. العاطفة والإبداع الشعري، د. عيسى علي العاكوب، دار الفكر، دمشق ، ١٤٢٣هـ. ٢٠٠٢م.

١٥. العصر العباسي الأول ، د. شوقي ضيف ، ط٤، دار المعارف ، مصر.

١٦. فضائل الخمسة في الصحاح الستة ، مرتضى الحسيني الفيروزي آبادي، مطبعة النجف ، ١٣٨٧هـ.

١٧. الفهرست ، ابن النديم ، تحـ : رضا تجدد، ط٣، إيران.

١٨. لسان العرب ، ابن منظور ، (٧١١هـ) دار صادر، بيروت ، ١٩٥٦م.

١٩. لسان الميزان ، ابن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي، بيروت ، ١٩٧١م.

٢٠. محاضرات في طبيعة الفن ومسؤولية الفنان ، د. محمد النويهي، معهد الدراسات العربية ، ١٩٥٧. ١٩٥٨.

٢١. مشاهير شعراء الشيعة ، عبد الحسين الشيشري، ط١، قم ، ١٤٢١هـ.

٢٢. مقتبس الأثر، الأعلمي الحائري، مطبعة حكمت ، قم

٢٣. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أبو العباس القلقشندي، تحـ : إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، ط٢، ١٩٨٠م.

٢٤. وفيات الأعيان وأنباء أنباء الزمان ، ابن خلكان (ت٦٨١هـ)، تحـ : د. إحسان عباس ، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧. ١٩٧٧.